كتاب : "وسائل الإعلام الاجتماعية: مقدمة نقدية"

Social Media: A Critical Introduction

تأليف: Christian Fuchs

(USA : Sage Publications, 2014)

إعداد: أ.د. شيماء ذوالفقار زغيب *

يقدم كريستيان فوكس Christian Fuchs الأستاذ بجامعة وستمنستر Westminster University كتابه المعنون "وسائل الإعلام الاجتماعية: مقدمة نقدية" Social Media: A Critical Introduction في أحد عشر فصلاً. ويسلط من خلاله الضوء على ظاهرة اجتماعية مهمة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية المعاصرة ألا وهي وسائل الإعلام الاجتماعية حيث يقدم فوكس رؤية نقدية فلسفية لوسائل الإعلام الاجتماعية وعلاقتها بقضايا السلطة والعدالة الاجتماعية، ويلبي الكتاب حاجة القارئ الذي يحتاج إلى فهم تلك الوسائل الجديدة بإيجابياتها وسلبياتها والإبحار في تناقضات هذا العالم حيث يساعد القارئ على طرح الأسئلة الصحيحة حول هذه الوسائل من خلال رؤية نقدية توضح علاقات التأثير والتأثر داخل هذا العالم المركب.

ويشير فوكس إلى أن هدف الكتاب هو تحليل واقع وسائل الإعلام الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي المعاصر، وإمكانات وحدود التغلب على الطابع الرأسمالي المؤسس لهذه الوسائل. ويتناول فوكس وسائل الإعلام الاجتماعية اعتماداً على المفهوم الماركسي للاستغلال الاقتصادي والطبقي، وذلك من خلال التركيز على الاقتصاد السياسي لكل من فيسبوك وتويتر وجوجل

* أستاذ بقسم الإذاعة والتليفزيون – كلية الإعلام – جامعة القاهرة.

ويوتيوب، ويشير إلى أن تلك المواقع تعكس علاقات القوة في المجتمع الرأسمالي حيث تعطي قوة أكبر للفاعلين الأكثر قوة اقتصادية، كما تعكس استغلال هذه المواقع للبيانات الخاصة بالمستخدمين حيث يتم تقديم هذه البيانات المتعلقة بتفضيلات المستخدمين للمعلنين. ويطبق فوكس هذه الفكرة في أكثر من دراسة حالة عبر الكتاب، ويسلط الضوء على ويكيبيديا باعتبارها تمثل نموذجاً لعناصر الاشتراكية في المجتمع المعاصر، حيث تنحو منحى ديموقراطي في خلق وتنظيم المعرفة ورفض الاستغلال الاقتصادي للبيانات التي ينتجها المستخدمون.

وقد جاء الفصل الأول كمقدمة لتوضيح ما يقصده المؤلف بالمقدمة النقدية لوسائل الإعلام الاجتماعية من خلال تحديد ماهية التفكير النقدي وأهميته، ثم التطرق إلى النظرية النقدية وتوجهاتها المختلفة. وتناول الفصل تعريفات الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام باعتباره دراسة للعلاقات الاجتماعية وخاصة علاقات القوى المختلفة التي تؤثر على عمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، كما تطرق الفصل إلى الموضوعات المهمة في الاقتصاد السياسي النقدي للاتصال، والتي تشمل: نماذج التراكم الرأسمالي في وسائل الإعلام، وعلاقة الإعلام بالمجال العام والعولمة، ويختتم المؤلف الفصل بالإشارة إلى أن الطبيعة الرأسمالية لوسائل الإعلام الاجتماعية ليست ضرورة، وإنما هي تراتبية تاريخية نتجت عن قيام الإنترنت على أساس رأسمالي وتجاري.

وجاء الفصل الثاني لتحديد ماهية وسائل الإعلام الاجتماعية وعلاقتها بالويب2، وحاجتنا للنظرية الاجتماعية لفهم تلك الوسائل الجديدة وتفسيرها في ضوء كتابات كل من دوركايم وماركس حيث ناقش الجزء الأول من هذا الفصل بعض الخصائص الأساسية والنقد الموجه للويب2 و وسائل الإعلام الاجتماعية، بينما قدم الجزء الثاني تعريفات مختلفة لوسائل الإعلام

الاجتماعية، واختتم المؤلف الفصل بإمكانية الاستفادة بما قدمه علماء الاجتماع في بناء نموذج يساعد في فهم تلك الوسائل.

وقدم الفصل الثالث علاقة وسائل الإعلام الاجتماعية بثقافة المشاركة وعلاقتها بالسياسة وديموقراطية المشاركة، وقد بدأ الفصل بتعريف ثقافة المشاركة باعتبارها اندماج المستخدمين والجمهور والمستهلكين في خلق المحتوى والثقافة، ثم تناول الفصل الدور الذي يقوم به المستخدم غير مدفوع الأجر من أنشطة من شأنها خلق عائد مادي يستفيد به القائمون على المواقع المختلفة.

ويستعرض الفصل الرابع النظرية الاجتماعية في عصر المعلومات، كما يتناول فكرة الاتصال الجماهيري الذاتي، وقوة الاتصال في مجتمع الشبكات، من خلال ثورات الربيع العربي أو ما أطلق عليه ثورات تويتر وفيسبوك وحركة احتلوا وول ستريت. ويقوم الفصل على منظور مانويل كاستيلز M. Castells (أستاذ تكنولوجيا الاتصال والمجتمع في مدرسة أنينبرج للاتصال بجامعة كاليفورنيا) ومفهومه عن قوة الاتصال في إطار وسائل الإعلام الاجتماعية فيما أطلق عليه المجتمع الشبكي Network Society حيث يعتبر الاتصال عبر تلك الوسائل اتصالاً جماهيرياً ذاتياً نتج عنه تغيرات عميقة في نظام القوة بالمجتمع، ويناقش فوكس عبر هذا الفصل رؤية كاستلز ويحللها إذ يراها تفتقر إلى التأصيل النظري وتقتصر على كونها نوعاً من التجميع غير المنظم لمجموعة من الملاحظات، ويرى فوكس أن رؤية كاستلز لثورات الربيع العربي وحركة احتلوا وول ستريت تعبر عن النشوة التكنولوجية Techno-euphoria والحتمية التكنولوجية Techno- determinism حيث يرى كاستلز أن هذه الثورات والحركات نبعت من عالم الإنترنت وتعيش وتتفاعل في الأساس من خلاله.

ويتناول الفصل الرابع أيضاً تعريفات مختلفة لمفهوم القوة وفقاً للأبعاد المجتمعية المختلفة: الاقتصادية والسياسية والثقافية، ويقدم الفصل مقارنة بين ويب1 و ويب2 وويب3. ويختتم فوكس الفصل بالتأكيد على الحاجة إلى نظرية نقدية لوسائل الإعلام الاجتماعية والمجتمع، وهو ما يحاول هذا الكتاب المساهمة في خلق بعض أسسها.

ويتناول الفصل الخامس الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الاجتماعية من خلال تقديم وسائل الإعلام الاجتماعية كأيديولوجية ووضع حدود لفرضية المشاركة عبر تلك الوسائل، ويقدم الفصل فكرة تراكم رأس المال ودورته. ويناقش فوكس من خلال الفصل حدود خاصية المشاركة في كل من يوتيوب وفيسبوك وجوجل وتويتر.

ويخلص المؤلف في نهاية ذلك الفصل إلى أن وسائل الإعلام الاجتماعية لا تقوم على المشاركة حيث إن الشركات الكبرى تسيطر عليها، وفي حين تروج استراتيجيات التسويق وبعض الأكاديميين لفكرة ديموقراطية تلك الوسائل يتم تجاهل مظاهر الرأسمالية التي تسيطر عليها، والتي تكرس فكرة استغلال تلك الشركات للأفراد المستخدمين لتلك الرسائل واستغلال ما ينتجونه من خلالها.

ويستعرض الفصل السادس محرك البحث جوجل: إيجابياته وسلبياته، والاقتصاد السياسي لهذا المحرك والأيديولوجية التي يقوم عليها، كما يحلل الفصل ظروف العمل بهذا الموقع. ويشير المؤلف من خلال ذلك الفصل إلى أن جوجل يقوم على استغلال المستخدمين وتحويلهم إلى سلعة حيث يتم مراقبة أنشطتهم وتتبع بياناتهم ليتم بيعها لتحقيق أرباح، وفي إطار ذلك لا تراعي شركة جوجل قضايا الخصوصية.

ويتناول الفصل السابع موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك من حيث مدى تهديده لخصوصية المستخدمين، والاقتصاد السياسي لهذا الموقع والأيديولوجية التي يقوم عليها ومدى الاستغلال الذي قد يتم من خلاله، ويطرح بعض البدائل المتاحة لهذا الموقع، ويخلص المؤلف إلى أن المفهوم الحديث للخصوصية يقنن عدم المساواة الاجتماعية من خلال مراقبة المستخدمين بشكل يخدم تراكم رأس المال لدى القائمين على الموقع والمعلنين، وينتقد فوكس الدراسات التي أجريت على ذلك الموقع لتركيزها فقط على فكرة تبادل المعلومات دون الالتفات إلى فكرة استغلال المستخدمين ودون تبني وجهة نظر نقدية للاقتصاد السياسي لهذا الموقع. ويقدم المؤلف موقع دياسبورا Diaspora كموقع بديل لفيسبوك لا يقوم على استغلال المستخدمين حيث لا يعتمد في تمويله على الإعلانات وإنما على التبرعات، ويعتمد على الملكية الذاتية للبيانات.

ويستعرض الفصل الثامن موقع التواصل الاجتماعي تويتر وعلاقته بالديموقراطية والثورات، ويجيب على التساؤل عما إذا كان تويتر مجالاً عاماً جديداً، ويعرض الفصل مفهوم هايبرماس عن المجال العام عبر تويتر والاقتصاد السياسي لهذا الموقع. ويخلص فوكس في نهاية الفصل إلى أن تويتر ليس مجالاً عاماً، ولن يكون باعثاً للأمل في ديموقراطية جديدة أو سبباً في مخاوف من حدوث عنف أو شغب، وأن ما ينبغي أن يشغلنا هو عدم المساواة في المجتمع والتي تنعكس من خلال ذلك الموقع، وكيف يمكننا الحد منها، ويرى فوكس أن وسائل الإعلام الاجتماعية لا تحدث ثورات أو مظاهرات، ولكنها تحمل خصائص متناقضة في مجتمعات مليئة بالتناقضات.

ويتناول الفصل التاسع موقع ويكليكس محاولاً الإجابة عن إمكانية جعل القوة تتسم بالشفافية وعلاقة ويكليكس بالليبرالية والاشتراكية، وعلاقته بالصحافة والإعلام البديل. وخلص الفصل إلى أن ويكليكس وسيلة إعلامية بديلة ساعدت

على جعل هياكل السلطة أكثر شفافية، وأعطت وزناً أكبر للسياسة، وتتسم بتحيز ليبرالي يركز على الحكم الرشيد، ولكن ينقصه فهم العلاقات الطبقية والاستغلال الموجود في النظام الرأسمالي المعاصر، ويرى فوكس أن موقع ويكليكس لديه الإمكانات التي تؤهله ليكون وسيلة مراقبة اشتراكية، ولكن تحقيق ذلك يتطلب مزيداً من الفهم للنظرية والممارسات الاشتراكية والتغلب على تحيزه الليبرالي.

ويقدم الفصل العاشر ويكيبيديا كشكل ديموقراطي جديد من العمل والإنتاج الثقافي التعاوني، ويتناول الفصل الاقتصاد السياسي للموقع، ويخلص إلى أن الموقع لديه إمكانات اشتراكية، وتديره منظمة لا تهدف إلى الربح ولا تعتمد على الإعلانات، ويتيح محتواه للجمهور دون مقابل مادي، ويقوم على العمل التطوعي.

ويختتم فوكس الكتاب بتقديم خلاصة في الفصل الحادي عشر عن المفهوم الحقيقي لوسائل الإعلام الاجتماعية وبدائلها والأيديولوجيات التي تقوم عليها، وكيفية مقاومة الاستغلال الذي قد يتم بواسطتها من خلال قوانين حماية البيانات والسياسات الإعلانية المختلفة.

وفي حين يقدم فوكس في كتابه فهماً دقيقاً للاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الاجتماعية في إطار النظام الرأسمالي إلا أن تناوله للبدائل يفتقر إلى العمق النظري والإمبريقي، حيث يقتصر في تناوله الإمبريقي للبدائل على ويكيبيديا، كما قدم تحليلاً لموقع دياسبورا (كبديل لموقع فيسبوك)، وعلى المستوى النظري لم يتعمق فوكس في تناول إمكانات مواقع التواصل الأكثر شهرة مثل فيسبوك وتويتر، والتي يرى فوكس أنها مواقع ذات خصائص متناقضة تعكس صراعات طبقية بين مجموعات مسيطرة ومجموعات خاضعة.

وفي المجمل فإن كتاب "وسائل الإعلام الاجتماعية: مقدمة نقدية" كتاب مهم لا غنى عنه للمهتمين والدارسين بمجال الإعلام الجديد وتكنولوجيا الإنترنت.